المنار
١٣١٥
فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب
يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

(قال عليه الصلاة والسلام: ان للاسلام صوى و«منارا» كمنار الطريق)

(مصر — الاحد ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢١ — ١٢ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٣)

﴿الكرامات والخوارق﴾

(المقالة الرابعة عشرة في أنواع الخوارق وضروب التأويل والتعليل)

﴿النوع السادس كلام الجمادات والحيوانات﴾

قال السبكي: ولا شك فيه وفي كثرته ومنه ماحكي أن ابراهيم ابن أدهم جلس في طريق المقدس تحت شجرة رمان فقالت له «يا أبا اسحق أكرمني بأن تأكل مني شيئاً» قالت ذلك ثلاثاً وكانت شجرة قصيرة ورمانها حامضا فأكل منها رمانة فطالت وحلا رمانها وحملت في العام مرتين وسميت رمانة العابدين. وقال الشبلي: عقدت ان لا آكل الا من حلال فكنت أدور في البراري فرأيت شجرة تين فمددت يدي لآكل منها فنادتني الشجرة «أحفظ عليك عقدك ولا تأكل مني فاني ليهودي» فكففت يدي: هذه حكايات السبكي التي بنى عليها نفي الشك في هذا النوع وان لم تتفق مع أصله وشروطه ولم ترو بطرق صحيحة وأسانيد معروفة. واذا صح ان ابن أدهم والشبلي قد قالا ماتقل عنهما في ذلك فالأقرب أنهما كانا يعنيان القول بلسان الحال فحمله بعض الناقلين على لسان المقال حبا في الإغراب او غلوا في تعظيم الصالحين على ان من الصوفية من يقول بأن صفة الحياة سارية في جميع المخلوقات حتى الاحجار والمعادن ويفسرون قوله تعالى «وان من شيء الا يسبح بحمده» على ظاهره فيقولون

انه تسبيح حقيقي قولي لا لسان حال ودلالة أثر على مؤثر . والقضية ممكنة في ذاتها ولا يبعد ان يكون لكل صنف من المخلوقات حياة تليق به بل هذا هو اللائق بالإبداع الالهي والانتظام العام ولكن البعيد ان يكون الجماد والنبات عالمين بسائر الشئون وناطقين بجميع اللغات . فيكلمان هذا بلسانه ويفصحان لذلك عن بعض شانه . وأبعد من هذا البعيد ان لا يكون ذلك الكلام المزعوم سنة عامة بأن يكون خروجا عن السنن الالهية لتحقق لاين أدهم شهوته . ولا شبلي عزيمته . ومثل هذه الخارقة مما نقل عن عباد النصارى (كاسيريدون العجائبي) وحكاياتهم فيها شبيهة بحكاياتنا وكل حزب بما لديهم فرحون

النوع السابع إبراء العلل

أشار السبكي في الكلام على هذا النوع الى حكاية الرجل الذي لقيه السريّ السقطي ببعض الجبال يبرئ الزمنى والعميان والمرضى . والى ماروي عن الشيخ عبد القادر الجيلي من انه قال لصبي مقعد مفلوج أعمى مجذوم : قم باذن الله : فقام معافى لا عاهة به . أقول وقد ذكر الشيخ علي القاري هذه الحكاية مفصلة في كتابه (نزهة الخاطر الفاتر في مناقب السيد عبد القادر) وأوردتها في كتاب (الحكمة الشرعية) وقفيت من بعدها بحكاية أخرى لصاحب هذا الكتاب . وامثال هذه الحكايات كثير عن الصالحين جدا ولا شك عندي في ان الكثير منها صحيح لاشبهة فيه . وينقل مثله أيضاً عن رجال الدين المعتقدين من النصارى والوثنيين وقد وقع على يدي شيء من ذلك في بعض الأمراض العادية . وليس في ذلك شذوذ عن السنن الطبيعية .

ان الوهم يفعل في شفاء الأمراض العصبية مالا يفعل العلاج ، ولا يوجد مثار للوهم أقوى من اعتقاد المعتقدين بالسلطة الروحانية والقوى الغيبية يؤتاها بعض رجال الدين . ويكفي في توثيق عرى هذا الاعتقاد في المستعدين له ماينقل اليهم بلسان زيد وعمرو . وهند ودعد . من الحكايات الغريبة ، والوقائع العجيبة ، واذا رأى أحدهم بعينه واقعة منها أو بعض واقعة أو شبهة على واقعة كأن يرى فلانا الذي كان مريضا قد شفي بعد رقية رقي بها . أو تميمة علقت عليه . فهناك الجزم بأن كون الشيخ فلان يشفي المرض بالسر . ويبرئ العلل بالبركة . من القضايا اليقينية الاولية . لا يتسرب اليه الشك . ولا يحوم حوله الريب . وان من ينكره فهو مريض الاعتقاد ، أو من أهل الجحود والإلحاد ،

عرف هـذا الأطباء والعقلاء فاستعانوا بالايهام على معالجة الأمراض العصبية فنجحوا نجاحا عظيما وهم يتفننون فى تصوير الوهم بالصور المناسبة لحال المرضى فى اعتقاداتهم بل يخلقون لهم اعتقادات ببعض الاشخاص أو ببعض الادوية ويبالغون فى تعظيم شأنها حتى يشغلوا خيال المريض بها ثم يسلطونها على مرضه . وانك لترى حكيما من الحكماء يدعو الى منزله دجالا من الدجاجلة الذين يدعون التصرف فى الجان والسلطة على العفاريت الذين يسمون الاناسي — يدعوه ليعالج بايهاماته الدجلية امرأة عنده مصابة بمرض عصبي مما يسميه الأطباء (الهستيريا) بعد أن يعجز عنها الأطباء . ويخيب فيها كل دواء . فتشفى برؤية زيه وبزته . وشم بخوره وسماع رقيته . ويعترف له ذلك الحكيم بأنه يفعل بكلماته وعزائمه . مالا يفعل الطبيب بأدويته ومراهمه . أتقول ان هـذا الحكيم يعتقد بحقية هـذه الخرافات . ويدين بأن ذلك الدجال من أهل الخوارق والكرامات . أم تقول أنه سلط الوهم على الوهم . كما يدفع فى الجدل الرأي الفاسد بالدليل الفاسد . وانه يرى المريض فى عصبه كالمريض فى عقله . ذلك يتأثر بأوهام الدجل . وهذا يقتنع بمغالطات الجدل .؟

الامراض العصبية التي تفعل فيها الاوهام ضروب مختلفة منها بعض فنون الجنون ومنها مقدماته . ومن المصابين بها من يعتقد بالشيطان يخالط روح الانسان ويعتقد بأن لبعض الناس سلطانا على الشياطين بطريقة صناعية كالبدعة الذميمة التي يسمونها (الزار) : وهي منبع المآثم والاوزار . أو بطريقة روحانية كبركات الشيوخ ورقاهم وعزائمهم . ونجد الذين يتحلون هذا الامر بسلوك كل من الطريقتين يعيشون فى مثل هذه البلاد بأكل أموال الناس بالباطل فكثيرا ما يوهمون من يرونه مستعدا لهذه الامراض من النساء والرجال بأنه مصاب بها وما هو بمصاب فيؤثر قولهم في نفسه فيمرض ويحكمهم فى نفسه يعالجونها كيف شاؤا . بل يحكمهم فى حاله وشرفه أحيانا وكثيراً ما يزيدون الداء إعضالا بحمقهم وسوء سلوكهم

جاءتني جريدة المؤيد وأنا أكتب في هذا النوع فرأيت في رسالة الاسكندرية منها كلاما فى انتشار وباء الزار في تلك المدينة وفعله فى النفوس والأعراض مالم يفعل الطاعون فى الاجسام . وفي الاموال والعروض مالم يفعل القمار والمدام . وقد رأيت ان أنقل ما كتب الكاتب بنصه فاقرأه تحت عنوان بدعة الزار

مضار بدعة الزار

«أصدرت محافظة بورسعيد أمرها في الاسبوع الماضي الى أقسام المدينة بمراقبة النسوة المشتغلات بالزار لان جمعياتهن كثرت برواج خزعبلاتهن فألحقن بربات البيوت أضراراً أدبية ومادية لايحسن التغاضي عنها وعهدت المحافظة أمر تجسس هذه المحرمات الى مشايخ الحارات ظناً منها أنها تستفيد من دقة مراقبتهم وتضرب بواسطة نفوذهم على أيدي أولئك النساء الشريرات

«أما نحن فنقول ان أوامر نظارة الداخلية الصادرة من عشرسنين وبيف والمصدق عليها من مجلس علماء الازهر الشريف وافتائه بتحريم استعمال بدعة الزار الشنيعة لم تكن في حاجة الى أوامر جديدة وهمة حديثة ليقال منها ان حكومتنا اليوم التفتت الى ضرر تلافيه ونظرت الى محرم فلاحقته بعدلها بل يجب أن نصرح بأنها أغضت زمنا عن واجب مقدس ثم تنبهت الى نظام موضوع من أجله فهبت الآن لتلافي الشر ووقاية هاته العيلات وثروتها وآذا بها من نتائجه الكثيرة التي منها الاملاق والجنون والطلاق والعروق عن جادة الاستقامة والعفاف وغير ذلك من الاضرار الظاهرة التي لاتحتاج الى استطلاع وفلسفة

«أما الاملاق والجنون فيكفي أن نشير اليهما بحادثة امرأة أشفقت على ابنتها المصابة بمرض عصبي (هستيريا) فالجأت الى الزار فصارت تبذل لهن مطالبهن الكثيرة من ذهب وطعام وغنم ودجاج حتى احتاجت الى المال فباعت كنها الوحيد الذي يستظلون به ويلجأون اليه وكانت النتيجة جنون الفتاة وموت أمها غما وقهراً لان ألعاب الزار وأوهامه من شأنها أن تثير العواطف وتنبه الاعصاب الى ماكمن من الداء فيظهر بشدة حينئذ ويصبح على التوالي ملكة لايرضيها غير هذه الاعمال الخيالية النفسانية فبدلا من تسكين لاعجه يزداد شراً على شر ويكون من نتائجه الجنون وكفى بالفقر مذهباً للرشاد ومضيعا للعقول

« وكم من زوج طلق عرسه لتبذيرها ونبذها طاعته في سبيل هذا الزار الذي استحكم فصار عادة بين النساء وموضع افتخار بعضهن وقليل من العقل والروية يكفي لنبذ الرجل زوجته ان والت معاندته والعمل على اساءته وهي لاتدري انه البر الرؤف

بها في منعها عن الانغماس في حمأة هذه الاوضار بل تظن به الشح والوسواس والكفر والكراهة الى غير ذلك من الظنون السخيفة التي تزرعها نساء الزار في رءوس لبسيطات من هؤلاء الامهات والفتيات فيقضين على راحتهن ومستقبلهن قضاء مبرما بالتفرقة والخراب وكفى بهذه النتائج المحزنة داعياً الى التفات الحكومة ومطاردتها للمشتغلات بهذه الدنايا والرزايا

«أما المروق عن جادة الاستقامة والعفاف فهذا كثير فان لقهرمانات الزار فنونا وحيلا ينفر منها ابليس ويستعيذ بسلبها منهن بالله لانها فوق قدرته لو أبناها في هذه العجالة وقليلها يكفي للاشارة الى سوء الحال وشر المآل

«حكي ان امرأة تعشقها سفيه دني، فاحتال للوصول اليها كثيراً حتى لجأ الى نداء الزار فلبث دورهن مع المرأة حتى أثرن عليها بأنها ملموسة بروح شريرة مما يعبرن عنه (بأن عليها شيخ) وعند ما ملكنها بهذه الخزعبلة قلن لها ان شيخك يحب شابا صفته كذا وكذا الخ الخ . ولا سبيل لسكون هذا القادر الا باجتماعهما وما زلن بها حتى رضيت بالشاب فكان من اجتماعهما ما كان من سكون لواعج النفس بطرد حركة الشيخين ... وكثيراً ما يجمع النسوة الشريرات مدبرات الزار الرجال بالنساء ويمهدن سبل الدنايا والموبقات على أشكال وضروب لا يليق بيانها وبذلك تتقوض أسس المحبة الزوجية فتكون العواقب أشد وخامة على الدرية التي لم تجن ما جناه الابوان من جهلهما وتساهلهما

«والغاية من رسالتي هذه اني أريد افهام الحكومة ان تكليفها مشايخ الحارات بمراقبة المشتغلات بالزار ومنازل طلابهن ومريديهن لا خير فيه ولا فائدة لانها تفتح لهؤلاء المشايخ المراقبين باب رزق وسيع فانهم يسعون الآن باحثين منقبين على من يحيي ليالي الزار وأيامه ليستفيدوا أتاوة الصمت والتغاضي وهو ربح حسن يفضل الارباح العائدة عليهم من المخافر والضمانات وغيرها ... وبذلك يزيد الزار انتشاراً وضرراً» اه بنصه

(المنار) ان ما رآه الكاتب في مشايخ الحارات صحيح فانهم قوم لا خلاق لهم واذا كان وجهاء الناس والذين يظن فيهم العقل والأدب والدين يخدعون للنساء المتحلات لبدعة الزار الضارة ويعتقدون نفعها فماذا عسى ينتظر من مشايخ الحارات وأكثرهم

من التحوت والغوغاء الذين يشترون بالآداب والأعراض ثمنا قليلا ولو جعلت الحكومة لمن يدلها على ذلك جعلا ولو قليلا لما خفي عليها شيء ولتيسر لها أن تستأصل هذه البدعة الضارة استئصالا

ومن العجائب ان الرجال يسمعون بآذانهم ويقرءون بألسنتهم ويشاهدون بأعينهم مفاسد الزار وفتكه بالأموال والاعراض وإفساده للاخلاق والعقائد وهم مع ذلك يسمحون لنسائهم بعمله وبحضوره فأي شرف وأي نخوة بقي عند هؤلاء الرجال السفهاء الاحلام الميتي الإرادة ؟ والله لو صلح الرجال لما فسد النساء ، والله ما أفسد النساء الا الرجال فلعن الله من لا غيرة له ، ولعن الله من لا نخوة له ، ولعن الله من لا شرف له ،

* * *

لكل قوم نصيب من الوهم يليق بجاهلهم واعتقادهم وقد ألمنا الى بعض شأن الذين يعتقدون بالارواح الخيرة والشريرة وأما الماديون والروحيون الذين يعتقدون ان الارواح أمور غيبية لا سلطان لها الا في أبدانها التي تحيا بها وأن لجميع الامراض أدوية يعرفها من يعرفها ويجهلها من يجهلها (كما ورد في الحديث) فان للوهم منافذ أخرى الى نفوس المصابين بالامراض العصبية منهم كالاعتقاد ببراعة الاطباء واكتشافاتهم واختراعاتهم ، وبأخبار الذين شفوا بمعالجاتهم ، وان كثيراً من أطباء أوربا وأمريكا يعالجون امثال هؤلاء المرضى بالادوية الوهمية . حكي ان امرأة منهم أعضل داؤها ، وعز شفاؤها ، فجاء بعض الاطباء الذين كانوا يعالجونها وقال : ان كل تلك الادوية التي كانت تداوى بها من المسكنات وانه لم يبق الا علاج سام خطر هو الشافي قطعا ولكن لا يمكنني ان أعطيها منه الا بشروط منها أن لا تزيد عن المقدار الذي أعينه نقطة من السائل ولا مقدار ذرة من الجامد ومنها ان تأخذه في المواقيت المعينة لا تتقدم دقيقة ولا تتأخر دقيقة ومنها أن تكتب كتابة ونسجلها في المحكمة بأنه لا تبعة علي ّ ولا مطالبة اذا هي ماتت مسمومة لأني لا آمن من مخالفتها في المواقيت او المقادير . وقد تردّد أهل المريضة في قبول الشروط ولكنها هي قبلت بها لان المرض كان منعها المنام والراحة فما زالت تلحّ عليهم حتى قبلوا وكان شفاؤها في ذلك الدواء ، ولم يكن الا الدقيق والسكر والماء .

عرف الناس تأثير قوة الاعتقاد الوهمي فضربوا لها المثل «لو اعتقد أحدكم بحجر لنفعه» ويظن بعض العامة ان هذا حديث لأنه مؤد لامعنى العام بعبارة وجيزة وبذلك امتازت الاحاديث النبوية.

ثم ان الجهل بأمور الدين والدنيا معاً فسره لأهل هذا العصر بغير معناه وان شئت قلت بنقيضه فهم يزعمون ان فيما يعتقد — وإن حجراً — نفعاً حقيقياً ثابتاً له لاينفك عنه ، فهم يتمسحون ببعض الاحجار، ويتعلقون ببعض الاشجار، ويتبركون بمياه بعض الآبار ، ويعتقدون ان فيها خواص تشفي الامراض ، وتقضي الحوائج والأغراض، ثم إنهم يلصقون ذلك بالدين ورجالاته، ويعدونه من دلائل صدقه وآياته، ويغفل أهل كل ملة عن مشاركة أهل الملل الأخرى لهم فيما يدعون ، واستدلالهم بمثل مايستدلون ،

كتبنا غير مرة فى مفاسد الاعتقاد بهذه الجمادات والاشجار كعمود الرخام فى المسجد الحسيني وباب المتولي وشجرة الحنفي ونعل الكلشني وغير ذلك، ولم ينس قراء المنار بل أهل مصر كلهم ما كان منذ سنتين ونيف فى المسجد الحسيني من الجلبة والضوضاء فى آخر الدرس الذي كنا نلقيه هناك اذ نهينا الناس عن التمسح بالعمود الذي يسمونه عمود السيد استشفاء به وطلباً للبركات منه فاحتج علينا بعضهم بالمثل الذي جعله الجهل حديثاً نبوياً ولما بينا لهم معنى المثل وكونه غير حديث وأنه لو كان حديثاً وكان معناه زعموا لكان حجة على نفع عبادة الاصنام قبل ذلك الجماهير وكان في الصفوف البعيدة من حاضري الدرس من لم يفهم القول فطفقوا يتساءلون: ماذا قال فى الحديث ماذا قال في الحديث : فاجاب بعض الذين وعوا القول بالصواب ودس بعض المرجفين أقوالا كانت مثار اللغط والضوضاء كقولهم انه أنكر حديث رسول الله (بمعنى كذبه) وقولهم انه قال ان سيدنا الحسين صنم لاينفع ولايضر وأمثال ذلك

أليست هذه الفتن والبدع والعقائد الفاسدة المفسدة للعقول والارواح ناشئة كلها عن الاعتقاد بهذا النوع من الخوارق الوهمية التي دخلت في الدين من تلك الاقاويل التي أثبتها مثل التاج السبكي من غير بينة ولا بيان ، ولا حجة ولا برهان ، الا زعم فلان ودعوى فلان ، ؟ بلى

هذا وجه من وجوه تعليل مانقل فى هـذا النوع وهو معقول مقبول وعليه أكثر العقلاء . وبقى وجه آخر يقول به بعض الناس فى بعض الوقائع — ونعني بالناس أهل العلم والبحث — وهو تأثير النفس فى النفس ويعبر عنه الصوفية بتأثير الهمة ويثبتونه لغير المسلمين حتى الوثنيين وهو ثابت عند حكماء اليونان والعرب وغيرهم وحكى ابن خلدون وقائع منه .

معهود عند جميع الناس رؤية أشخاص يرفعون قطارا (مصريا) عن الارض وقلّ من رأى بعينه أشخاصا يرفعون عدة قناطير فاذا قيل لهؤلاء ان قيصر روسيا السابق كان يأخذ كرتين من الحديد كل منهما عدة قناطير ويقذفهما فى الجو واحدة بعد أخرى ثم يتلقى كل واحدة بيد قاذفا إياها فى الجوّ ويعيد ذلك المرة بعد المرة زمنا طويلا — ينكر أكثر المعروفين بالعقل والروية هذه الرواية لان فى الناس المولع بانكار الغرائب التي لايعهد مثلها كما ان منهم المولع بنقل الغرائب التي لايعهد لها نظير .

ويعهد جميع الناس ان يروا حزينا فتؤثر فيهم حالته حتى يمتعضوا وربما بكى فأبكى ويعهد قليل من الناس من تأثير بعض الوعاظ مانوجل له القلوب وتذرف منه العيون ويحمل كثيرا من الناس على الرجوع عن حال الى حال ، وعلى الخروج من العقار والمال . وليس هذا تأثير الكلام خاصة وإنما العمدة فيه على تأثير النفس . وقد كان بعض الوعاظ الصالحين يعظ فيتوب قوم ويبكي ناس ويموت آخرون فقيل له ان فلانا أفصح منك في التذكير لسانا ، وأوضح بيانا ، فما بال كلامه لايؤثر ، ولا يستتيب ولا يستعبر ، فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة : يريد ان التأثير بالحال ، لا بزخرف القال . — واذا قلت لهؤلاء الناس ان فى الناس أفرادا لهم قوة نفسية ، وهمة روحانية ، اذا وجهوها الى نفس أخرى فانها تؤثر فيها التأثير الذي يريدونه متى صح التوجه ينفضون رؤوسهم وينكر أكثر أهل البحث والروية هذه الرواية . واذا دام أهل العلم في الغرب على بحثهم في الامور الروحية فان هذه المسألة تثبت عندهم بالتجربة التامة . وكما يكون هـذا التأثير فى شفاء المرضى يكون فى إحداث الامراض ولبعض الناس فى كل أمة استعداد قوي له اذا استعملوه زاد قوة وتأثيراً